كتب

تستعرض المفكّرة الأميركية، في الكتاب الصادرة نسخته العربية حديثاً عن «دار نينوى» بترجمة نور حريري، مقاربات مجموعة من المفكّرين، لِتُكَوّن من مجموعِ نظرياتهم رؤيتها في تَشكُّل الأنا. تقارن فكرة بأخرى، وتصنع رؤية متآلفة تشرح من خلالها كيف يتم إخضاع البشر

جوديث بتلر أسوار داخل الإنسان

الخضوع أو الموت

سومر شحادة

تستعرض المفكّرة الأميركية جوديث بَتلر (1956) في كتابها «الحياة النفسيّة للسلطة: نظريات في الإخضاع» مقاربات عددٍ من الفلاسفة في تَشكُّل الذات الخاضعة، وهو كتاب في التحليل النفسي الاجتماعي يكشف مسألة الإخضاع الذي يُمارَس على الذات، ومن ثمَّ تُمارسه الذات ضِدَّ نفسها. تستخدم بتلر في الكتاب الصادرة نسخته العربية حديثاً عن «دار نينوى» بترجمة نور حريري أفكارَ كُلٍّ من هيغل ونيتشه وفوكو وألتوسير وفرويد، لِتُكَوّن من مجموعِ نظرياتهم رؤيتها في تَشكُّل الأنا. تعرض أفكارهم بالتحليل والنقد، تجمع ما هو مشترك في نظرياتهم، تقارن فكرة بأخرى، وتصنع سلسلةً محكمةً من النظريات المتآلفة التي تشرح للبشر كيف يتم إخضاعهم في المدرسة والشارع والكنيسة، حيثُ يبدو الإنسان في خِضَمِّ هذه النظريات خاضعاً لِما صنعه. لا تَتَعرّضُ الإنسان لحدثٍ من غير أن يترك أثراً لديه، وأُسوةً بمدارس التحليل النفسي؛ تخبرنا بتلر أنّ آثار فقدِ الحُبّ ومنح الوعود، إلى جانب ما تُمارسهُ السلطة الاجتماعية، هو ما يصنع الإنسان ويرسم حدوده.

استبدل سيّداً بآخر

تتناول بتلر في قراءاتها «الوعي الشقي» لدى هيغل، الذي ينظم الصلة بين السيّد والعبد بعد تحرّر الأخير. إذ يتخلّص العبد من السيّد ظاهرياً يجد نفسهُ خاضعاً لمعايير تعكسُ قوانين السيّد. ويتحوّل العبد، بتحررهِ، إلى شكلٍ مختلف من أشكال «التوبيخ الذاتي الأخلاقي». يحمّل ذاتهَ عبءَ تحرّره، وذلك بإدراجها في حلقةٍ مغلقةٍ من الشعور بالذنب. فالإنسان يُفضّل أن يرتبط بالألم - بحسب فرويد - بدل ألا يرتبط على الإطلاق. يُحكَم العبد من خلال وعيهِ الشقي وبأوامر أخلاقية ذاتية تستعبدهُ جسدياً. يستخدم هيغل الجسد لتفسير هذه المسألة، فالسيّد يعمل من خلال جسد غيرهِ، فيما العامل/ العبد يتحدّد بالعمل الذي ينجزه، وهو مجبرٌ على التخلّي دوماً عمّا يصنع، هويتهُ امحاءٌ مستمرّ من قبل السيّد الذي يمتلك حق «التوقيع» على ما يتم إنجازه. بالتالي، بدلاً من العبودية يخضع العبد إلى الوعي الشقي الذي ينبّهه، بفعل الأخلاق الخاضع لها، إلا أنّه لا يمتلك الحق بجسدهِ، فهو جسدٌ أداتي مشروط بوجود السيد وبتوقيعهِ. التحرّر لدى هيغل هو استبدال سيّد من الخارج بآخر من الداخل. ما يُسوّغ اعتبار نيتشه للأخلاق «نوعاً من المرض»، فالذات لدى نيتشه تَتَشكّل نتيجة لـ«الضمير المثقل بالذنب». تَتَشكّل عبر الخضوع نفسهِ، لا في المعيار الذي تخضع إليهِ. الذات لدى نيتشه مرتبطة عاطفياً بالخضوع، ما يجعل القمع قادراً على تأليب الذات ضِدَّ نفسها. إذ يعتبر نيتشه أنّه «لا يبقى في الذاكرة إلا ما لا يتوقف عن إيلامنا». ارتباط الذات بالخضوع تحفيزٌ دوري ومستمر للذاكرة. الأمر الذي يجيده من يطلقون وعوداً، لأنّهم قد نمّوا في أنفسهم مَلكةً تعارض النّسيان في ما يخصّ ما ألزموا بهِ أنفسهم تجاه «السيّد» وقد أشرعوا سلطة على أنفسهم من داخلها، سلطة ترتبط بالمستقبل غير المُعيَّن، ما يجعل الارتباط وثيقاً بين الذاكرة والعقاب الذي تشهر بهِ الذات أمام نفسها، ما لم تَفِ بالوعد. إنّه عقاب يَنشأ من الأخلاق، ويستمر في الذاكرة. تؤسس الأخلاق الذات وتصقلها عبر نوع من العنف، فالضمير المثقل بالذنب يربطُ المتعة بإيلام النفس خِدمةً للأخلاق، ما يسبّب بهجة مُتَأتِيَة من اضطهاد الذات.

الارتباط العاطفي بالقانون

تكشف بتلر رؤية فوكو لتشكيل الذات في تحليلٍ مشابه لرؤية هيغل حيال السيّد والعبد، يفكّك فوكو العلاقة بين السجن والسجين من خلال اصطلاح «تذويب السجين»؛ فالسجين لدى فوكو، لا يُنظَّم من خلال علاقته بالسلطة أو من خلال تقييدهِ في حيّز مكاني مغلق، وإنّما يُصاغ من خلال هويتهِ الخطابية بوصفهِ سجيناً. كما يرى فوكو أنّ الخضوع إلى السلطة شَرطٌ لتأسيس الذات، كما لو أنّ الخروج عن السلطة نفي للفرد وانعدامٌ لذاتهِ. كلّ من هو خارج السلطة غير موجود، وفقاً لرؤية فوكو، لأنّه يوجد خارج الخطاب. يشيرُ فوكو إلى أنّ السلطة/ السجن لا تعمل فقط على الجسد، وإنّما تعمل فيهِ أيضاً، فالروح لديهِ سجنُ الجسد، حيثُ تغزو السلطة باطن الذات وتبني أسواراها هناك. كذلك تستعيد بتلر فكرة ألتوسير حول «المساءلة» وترى أنّ نداءَ الشرطي في الشارع لأحد المارة، مشهدٌ تأديبي. فالشرطي يعيد المُنادَى إلى القانون، والنداء يُشكّل الشخص المُنادَى ويموقعه. بذلك يفسّر ألتوسير الذات بوصفها «نتيجة للغة»، إذ ما إن يلتفت المُنادَى إلى من يناديهِ، ويقبل مصطلحاتهِ، فإنّه يخضع إلى معيار من يُناديهِ. كما تتساءل بتلر حيال ذلك التواطؤ مع القانون ضد الذات، إذ ما إن يلتفت الإنسان إلى القانون ينقلب على نفسهِ، يَخضَع، الأمر الذي يعيدنا إلى فكرة فوكو عن «التنظيم الاجتماعي» الذي يرى الخضوع شرطاً لنشأة الذات ضمن فضائها. لِكَي يوجد أحدنا يحتاج إلى اسمٍ يُعرِّفه، ولكي يوجد اجتماعياً يحتاج إلى اعتناق القانون، والاستجابة للنداءات التأديبية على نحو قهري مستمر. نرى الذات لدى ألتوسير في حالةِ ترقّب عاطفي للقانون، كي يستمر الاعتراف بها. لدى ألتوسير لا يمكن ضمان وجود الذات لغوياً من دون الارتباط العاطفي بالقانون، من دون حبّ القانون الذي دفع ألتوسير ذاتهُ، بعدما قتل زوجته هيلين، إلى الخروج إلى الشارع واستدعاء الشرطة، معترفاً بجريمتهِ ومنتظراً العقاب.

بناء جديد فوق آخر قديم

في قراءة بتلر لفرويد في ما يتعلّق بنظريات تَشكُّل الذات، تتناول «الميلانخوليا»، وهي حالة الحزن غير المكتمل، حيثُ يُدمَج الموضوع المفقود ويُحفظ بصورة وهمية داخل النفس. وعبر تكوين صورة عن الموضوع المفقود، مثل الجنس والحرية أو حتى أشخاص محبوبين، ينشأ العالم الجوانيّ من خلال التماهي مع الفقد، إذ يرى فرويد أنّ الميلانخوليا تنطوي على توبيخ ذاتي. وعند سماع الاتهامات التي يوجّهها مريض الميلانخوليا إلى نفسهِ يتولّد انطباع لدى سامعهِ، بأنّها اتهامات موجّهة إلى الموضوع المحبوب الذي سكن الأنا وصار جزءاً منها. وعوض أن يتوجّه الغضب إلى الخارج، فإنّه يَصبُّ في الداخل. برفض الفقد، وبالتالي رفض الحزن الذي - بحسب فرويد - يقطع الارتباط بالشخص المفقود، فإنّ الموضوع المفقود يبقى قائماً كجزء من الحياة النفسيّة للمرء، لكنّ هذا الإحلال للأنا بديلاً عن الموضوع لا ينجح بصورة تامّة، بل يفصل بين عالمين؛ جواني حميم وبراني موحش. ولا يلبث مرض الميلانخوليا أن يفقد أيضاً المحيط الاجتماعي الذي تسبّب بالفقد.

ظنّ فرويد أنّ قطع الارتباط يقتضي بناءَ ارتباطاتٍ جديدة، الأمر غير الممكن بصورة محسومة ذلك لأنّ ما فُقِد صار مُستَبْطَناً داخل المرء، الارتباطات الجديدة صارت تحدث مع ذواتٍ مرتبطة أساساً، الارتباطات الجديدة أشبهُ ببناءٍ جديد فوق بناءٍ قديم.

تتلخّص نظرية بتلر التي شكّلتها من نقاش أفكار مجموعة من المنظرين في التحليل النفسي الاجتماعي في مجموعة من المحدّدات؛ بغياب السلطة تصبحُ الذات صوتها عبر تواطؤ الضمير والأخلاق، وللخطاب الاجتماعي القدرة على تشكيل الذات من الداخل باستخدام سلطة اللغة. حتى عندما تُفقَد السلطة الاجتماعية، التي ارتبط المرء بها عاطفياً، فإنّها تصبح موضوعاً مفقوداً، مثلها مثل الوطن، وتَحْكُمُ المرء بصفتها موضوعاً مفقوداً.

هكذا تجعل بتلر من السلطة شرطاً لنشأة الفرد، وشرطاً لاستمرار وجوده. ويبدو تحرّر الإنسان ممّا قد شكّله أشبه بوضع وجود الإنسان برمّتهِ تحت تهديد الفناء.

(كاتب من سورية)

يمارس الإخضاع على الذات، ومن ثم تمارسه ضدّ نفسها

تجعل المفكّرة الأميركية من السلطة شرطاً لنشأة الفرد

جوديث بتلر عام 2012 (Getty)

مسالك المفكّرة

تعدّ المفكّرة الأميركية جوديث بلتر عَلماً في عدة حقول معرفية أبرزها الفلسفة السياسية والنظرية النسوية. من مؤلفاتها: «مواضيع الرغبة»، و«الذات تصف نفسها»، و«مشكلة النوع»، و«مفترق طرق... اليهودية ونقد الصهيونية»، والأخير عمل أكّدت به وقوفها إلى جانب الفلسطينيين في مواجهة الصهيونية، وقد دحضت مزاعم «إسرائيل» في تمثيل اليهود، كما طالبت بفرض عقوبات عليها.

نظرة أولى

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدر مؤخراً كتاب **مدخل إلى المنطق التقليدي** للباحث الجزائري الأخضر قريسي. يركز العمل على أهمية المنطق التقليدي من جوانب متعددة متنوعة، أبرزها، أنه إنجاز جسّد تدرّج الفكر البشري من مرحلة الميثوس إلى مرحلة اللوغوس، وكان أول محاولة لصوغ منهج عقلاني وعلمي لإصابة الحقيقة وتجنب الأخطاء والمغالطات، وفق مبادئ وقوانين وقواعد مقننة وضابطة للفكر والاستدلال. ينقسم الكتاب لجزأين: الأول بعنوان «المنطق التقليدي ومباحث التصورات»، والثاني «المنطق التقليدي ومباحث التصديقات».

بترجمة ودراسة الباحث والمؤرخ الكوسوفي السوري محمد م. الأرناؤوط ، تصدر هذه الأيام في عمّان (الآن ناشرون وموزعون) مختارات جديدة من كتاب الرحالة العثماني أوليا جلبي، وتشمل هذه المرة **مختارات عن بلاد الألبان**. الجديد في هذه المختارات هو ما تكشفه عن اختراع جلبي للأصل العربي للألبان الذي تحوّل إلى أسطورة انتشرت بين الأتراك والعرب، واكتشافه لمجتمع أوروبي مسلم مختلف عما رآه في بلدان أخرى. من كتب الأرناؤوط الأخرى: «الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية»، «تاريخ بلغراد الإسلامية»، «البلقان من الشرق إلى الاستشراق».

نموذج الصين: الجدارة السياسية وحدود الديموقراطية عنوان العدد الأخير من سلسلة «عالم المعرفة» التي يصدرها «المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب» (الكويت). العمل من تأليف دانييل بيل ونقله إلى العربية عماد عواد، وقد صدر أوّل مرة بالإنكليزية عام 2015 عن «منشورات برينستون». يتجاوز العمل قراءة الواقع السياسي للصين وفهم خصوصياته إلى وضع التجربة الصينية كمحك لأسئلة كبرى في الفكر السياسي الغربي أبرزها: هل حقاً أن الديمقراطية أقل الأنظمة السياسية سوءاً؟ وأي معنى للتسميات الأيديولوجية المستعملة منذ أكثر من قرنين؟

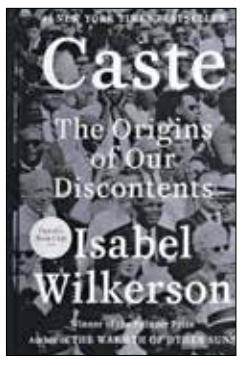

الطبقة المغلقة: أصلُ استيائنا عنوان كتاب للصحافية الأميركية إيزابيل ويلكرسون، صدر حديثاً لدى «راندوم هاوس». غالباً ما يقودنا الحديث عن نظام الطبقات المنغلقة . اجتماعياً أو إثنياً . إلى الهند، المعروفة باحتوائها وتسامحها مع النظام الهرمي الذي يخلق تراتبية وفصلاً بين الجماعات. لكنّ ويلكرسون تقول للأميركيين: لا تذهبوا بعيداً لتعثروا على نظام كهذا، فهو موجود عندنا. من خلال تحليل لميكانيزمات السلطة، تُقدّم المؤلّفة العديد من الأدلّة حول وجود نظام طبقات منغلقة يحكم المجتمع الأميركي ويعيد إنتاج نفسه.

عن «دار كنوز المعرفة»، صدر مؤخراً كتاب **أنطولوجيا العرفان واللسان. من المنظومية إلى النسقية** لـ عبد الرحمن طعمة وأحمد عبد المنعم وهو عملها المشترك الثالث بعد «النظرية اللسانية العرفانية» و«المقاربة العرفانية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها». يسعى الكتاب الأخير إلى فهم العلاقة بين الدماغ واللغة من منظور تطوّري، ويصل الباحثان إلى تفنيد فرضية «فطرية اللغة». يشير المؤلفان في تقديم الكتاب إلى أنه «محاولة تأسيسية منا لتفسير الظاهرة اللغوية تجريبيًا؛ بوصفها نظامًا من النسق العرفاني للذهن البشري».

لدى منشورات «لا ديكوفرت» في باريس، يصدر هذه الأيام كتاب **اللاوعي أو نسيان التاريخ** للباحث إيرفيه مازوريل. ينضمّ الكتاب إلى سلسلة من الكتب البحثية الصادرة في السنوات الأخيرة في فرنسا، والمدافعة عن تجاوز بنية اللاوعي للإطار النفسي الفردي والعائلي، كما فهمه سيغموند فرويد. الأطروحة الأساسية في هذا الكتاب هي أن الوعي مشرَّبٌ بالتاريخ، وليس غريباً عنه، وهو يتشكّل ويتغيّر . جماعياً . وفقاً للأزمان والمراحل التاريخية. يقدّم المؤلّف العديد من الأمثلة حول تغيُّر رغبات وأخلاق وعادات وتقاليد ومُثُل والكثير من العناصر المرتبطة باللاوعي، بتغيُّرٍ حاصل في التاريخ.

زاما 202 عنوان العمل الروائي الأخير للكاتب والباحث التونسي الأزهر زناد وقد صدر مؤخراً عن منشورات «بوب ليبريس». ينتمي العمل إلى نمط الرواية التاريخية باستعادته مرحلة من التاريخ التونسي القديم مع نهايات الإمبراطورية القرطاجية. من الأعمال الروائية الأخرى للمؤلف: «الإسفنجة» و«الناطور»، وقبل ذلك عرف بكتاباته البحثية ضمن حقل اللسانيات ومن أبرز مؤلفاته ضمنه: «المنوال الاحتمالي في انتظام المعجم العربي»، و«اللغة والجسد»، و«نسيج النص»، كما ترجم كتاب «بناة اللغة» لـ كلود حجاج، و«مدخل في نظرية المزج» لـ مارك تورنر.

أنا ورافع الناصري: سيرة الماء والنار عنوانُ كتابٍ صدر حديثاً عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر»، للشاعرة والمترجمة مي مظفّر، تتناول فيه مسيرة الفنان العراقي (1940 ـ 2013) الذي قضت معه حياةً مشتركة امتدّت أربعين عاماً. تتناول المؤلّفة هذا الجانب الشخصيّ من علاقتهما، كما تتوقّف عند عدد من المحطّات الأساسية في تجربته. يُعدّ الناصري واحداً من أبرز الفنانين العراقيين من أبناء جيله، ومن أوائل المشتغلين بالغرافيك عربياً. ولحفظ أثره الفني، قامت مظفّر بإنشاء «جائزة رافع الناصري السنوية لفنون الغرافيك».